البابا شنوده الثالث

يا رب لماذا .. ؟

(مز ٣)

يا رب لماذا .. ؟

Lord , How?

المزمور الثالث [صلاة باكر]

Contemplations On Psalm III

By . H . H Pope Shenauda III

تصدير

أعطاني الرب فرصة للتأمل في المزامير ضمن محاضراتي العامة ، في أواخر سنة ١٩٦٨ وخلال سنة ١٩٦٩ ، وفي أحيان أخرى .
وهذا المزمور { يا رب لماذا كثر اللذين يحزنونني } ألقيته يوم الجمعة ١٩٦٨/١٠/١٨ في الكنيسة المرقسية بالأزبكية . وهو من مزامير صلاة باكر .
وكنت قد أخترت بعض المزامير السهلة في حفظها لتكون موضوعاً للتأمل قبل المحاضرة العامة وأرجو أن أنر لك أيها القارئ المحبوب هذه التأملات في كتب صغيرة . وقد نشرت لك من قبل تأملات في مزمور { يستجيب لك الرب } (مز ١٩ [٢٠]) أول مزامير الساعة الثالثة . كما نشرت من قبل في ثلاثة مزامير من صلاة الغروب .
لعل الرب يعيننا في تكملة هذه المجموعة كلها
ولتذكرني معك في صلواتك

البابا شنوده الثالث

المزمور الثالث

يا رب لماذا
كثر الذين يحزنونني

يا رب لماذا كثر الذين يحزنونني
كثيرون قاموا على
كثيرون يقولون لنفسي : ليس له خلاص بإله (سلاه)
وأنت يا رب هو ناصري . مجدي ورافع رأسي .
بصوتي إلي الرب صرخت فاستجاب لي من جبل قدسه
(سلاه) .
أنا أضطجعت ونمت ثم استيقظت ، لأن الرب ناصري
لا أخاف من ربوات الجموع المحيطين بي القائمين على
قم يا رب خلصني يا ألهي ، لأنك ضربت كل من يعادينني
باطلاً . أسنان الخطاه سحقتها .
للرب الخلاص ، وعلى شعبه بركته . هللو يا .

مقدمة

هذا المزمور هو مزمور عتاب مع الله ، كما في قوله: { يا رب لماذا ؟ } . وهو مزمور شكوى ، كما في قوله : { كثر الذين يحزنونني . كثيرون يقولون لنفسي : ليس له خلاص بإله } وهو أيضاً مزمور استغاثة كقوله { قم يا رب خلصني يا ألهي } . وهو كذلك إيمان حيث يقول : { لا أخاف من ربوات الجموع المحيطين بي } . وهو يتحدث في صلاته عن خبراته الروحية فيقول { بصوتي إلي الرب صرخت ، فاستجاب لي من جبل قدسه } . والمزمور أيضاً فيه ثقة واتكال على الله ، إذ يقول { للرب الخلاص وعلى شعبه بركته } . ويسترجع مع الرب ذكرياته فيقول : { ضربت كل من يعادينني باطلاً . أسنان الخطاة سحقتها } . ومع أنه يبدأ بالشكوى والعتاب والاستغاثة إلا أنه ينتهي بالتهليل (هللويا) إذ يتذكر أعمال الله معه .

ويصلح هذا المزمور لكل من هو في ضيقة من أعدائه ، ولكل من هو مضغوط من حروبه الروحية .

وهو أيضاً نبوءة عن السيد المسيح في الأمه وموته وقيامته ...

وسنتناوله الآن أية أية في تطبيقه الروحي على النفس البشرية .

أنه يبدأ فيقول :

يارب لماذا

أنه عتاب مع الله ... لماذا يا رب ؟ لماذا يحدث لي كل هذا ؟ ! كيف يحدث هذا وأنت موجود ؟!

كثير من الناس إن قلت لهم لماذا يحدث لي منكم هذا ؟ يغضبون ويتضايقون . ولكن الله نقول له لماذا ؟ فيتسع صدره لكل ما نقول ....

داود النبي ، كثر الذين يحزنونه ، فلم يعاتبهم . وإنما عاتب الله نفسه ...

لماذا يا رب أجد هذا الحزن ؟ لماذا كثر الذين يحزنونني ؟ أليسوا جميعهم في قبضة يديك ؟ ألست أنت ضابط الكل ؟ لماذا تسمح بكل هذا ، وأنا في رعايتك وفي حمايتك ؟ !

عتاب داود مع الله

ما أكثر عتاب داود مع الله . ! لعلها إحدى الميزات التي تتميز بها المزامير ....

١- انظروا مثلاً الدالة التي يتكلم بها في المزمور العاشر ، فيقول للرب معاتباً :

{يا رب لماذا تقف بعيداً ؟ ! لماذا تختفي في أزمنة الضيق ؟ ! } (مز ١٠ : ١)

ربما لو قلنا هذه العبارة لأحد أصدقائنا من البشر ، لا يحتملها ... ! ولكن الله يقبل هذا الكلام .... وعبده داود عنده الجرأة أن يقول { يا رب لماذا ؟ } .

ويكمل داود عتابه فيقول : { في كبرياء الشرير ، يحترق المسكين... والخاطف يجدف ، يهين الرب ... كل أفكاره أنه لا إله . ويتابع داود عتابه فيقول { قم يا رب يا الله ارفع يدك . لا تنس المساكين ..}

لماذا يا رب تختفي وقت الضيق ؟ قم . اعمل خلص رعيتك . لماذا يقولون لا إله ! أو لماذا يقولون : { ليس له خلاص بإله } ؟ ! { تأوه الودعاء . قد سمعت يا رب } (مز ١٠ : ١٧) .

إنه إنسان يكلم الله بصراحة ، ويعاتبه ..

لماذا نبحث عنك في وقت الضيق ، فلا نجدك ؟! وكأنك تقف بعيداً ، وكأننا لسنا من أولادك ، والله يقبل كل هذا الكلام ... على الرغم من أنه يعمل ، ولكننا نحن الذين لا نبصر عمله ...

٢- ويعود داود ليقول { يا رب لماذا ؟ } في (المزمور ٤٤)، حيث يصف متاعبه ، ويعاتب الرب قائلاً : { قد رفضتنا وأخجلتنا } إلي أن يقول للرب في نفس المزمور (مز ٤٤ : ١٢) :

{ بعت شعبك بغير مال ، وما ربحت بثمنهم } .

{ اليوم كله خجلي أمامي ، وخزى وجهي قد غطاني ، ومن صوت المعير والشاتم ، من وجه عدو منتقم } .
ويختم داود عتابه بقوله :

{ استيقظ . لماذا يا رب تتغافى ؟ أنتبه .. لماذا تحجب وجهك وتنسى مذلتنا وضيقتنا .. }

(مز ٤٤ : ٢٣ ، ٢٤)

أن داود يفتح قلبه لله ، ويشرح مشاعره كما هي . لا يتصنع كلاماً ...
إن شكر يشكر من عمق قلبه وهو مبتهج . أما إن كان متضايقاً ، فإنه يعاتب .. وفي ل ذلك لا يغضب الله من صراحته ولا من عتابه . بل أن السيد المسيح له المجد يقول عن مزامير داود :
قال داود بالروح (مت ٢٢ : ٤٣) .
عتاب داود لله يدل على آمرين : محبة الله وسعة صدره من جهة ، وجرأة داود وصراحته ودالته من جهة أخرى ..

٣- ويعود داود في (المزمور ٧٤) فيقول للرب : (لماذا ؟) مرة أخرى { لماذا رفضتنا يا الله إلي الأبد ؟ لماذا يدخن غضبك على غنم مرعاك ؟ .. حتى متى يا الله يعير المقاوم ، ويهين العدو أسمك إلي الغاية ؟ لماذا ترد يدك ويمينك ؟ ! } (مز ٧٤ : ١ ، ١٠)
ثم يقول :

{ لا تسلم للوحوش نفس يمامتك } (مز ٧٤ : ١٩)

ثم يختم عتابه بقوله : { قم يا الله . أقم دعواك . أذكر تعيير الجاهل إياك اليوم كله .. } إنه يعتبر تعبيرات الجاهل تعبيرات لله نفسه . لأنه لو كان الله قد قام وأنقذ ، ما كان العدو الجاهل يفعل هذا كله ...

٤- وفي (المزمور ٧٩) يقول داود للرب معاتباً : { اللهم أن الأمم قد دخلوا ميراثك ، نجسوا هيكل قدسك } (مز ٧٩ : ١) ... . { إلي متى يا رب تغضب كل الغضب ، وتتقد كالنار غيرتك ... لا تذكر علينا ذنوب الأولين } إلي أن يقول للرب :

{ لماذا يقول الأمم أين هو إلههم } (مز ٧٩ : ١٠) .

وهنا لا يعاتب الرب فقط على تعديات الأمم وتعبيراتهم ، إنما يعاتبه أيضاً على غضبه
لولا أنك يا رب غضبت علينا وتركتنا ، ما كان الأمم يفعلون بنا كل هذا ... إذن لماذا يا رب تغضب ، فلماذا يستمر غضبك { أعنا يا الله وخلصنا من أجل أسمك نحن شعبك وغنم رعايتك } (مز ٧٩ : ٩ ، ١٣) ...

٥- ونفس العتاب ، ونفس كلمة لماذا ؟ يتكرر في (مزمور ٨٠) وفي (مزمور ٨٨) حيث يقول داود : { يا رب الجنود ، إلي متى تدخن على صلاة شعبك ؟ } إلي أن يقول معاتباً :

{ قد أطعمتهم خبز الدموع ، وسقيتهم الدموع بالكيل }

جعلتنا نزاعاً عند جيراننا ، وأعداؤنا يستهزئون (مز ٨٠ : ٤ -٦) . ويختم العتاب في هذا المزمور بقوله : { أرجع . اطلع من السماء ... أنر بوجهك علينا فنخلص }
٦- ويقول داود معاتباً الرب في (المزمور ٨٨) .

{ لماذا يا رب ترفض نفسي ؟ لماذا تحجب وجهك عني } (مز ٨٨ : ١٤)

هذا المزمور بالذات مملوء بالعتاب ، حيث يقول للرب : { على استقر غضبك . وبكل تياراتك أذللتني } (مز ٨٨ : ٧) { أبعدت عني معافي ... عيني ذابت من الذل . دعوتك يا رب كل يوم بسطت إليك يدى . أفلعلك للأموات تصنع عجائب ... لماذا يا رب ترفض ... }

٧- ما أكثر العتاب في مزامير داود . لسنا نستطيع أن نحصيه في هذا المجال . لكننا نود أن نحتم اقتباسنا من داود بقوله في (المزمور ٨٩) :

{ حتى متى يا رب تختبئ كل الاختباء ؟ ! حتى متى يتقد كالنار غضبك ؟ .. أين مراحمك الأولى .. ؟

(مز٨٩ :٤٦، ٤٧) .

إنه يذكرنا أيضاً بما قاله في المزمور التسعين : { ارجع يا رب حتي متي ؟ ... فرحنا كالأيام التي فيها أذللتنا ، كالسنين التي رأينا فيها شرا } (مز ٩٠ : ١٣ ، ١٥) .
هذا العتاب ، و هذه الصراحة ، و عبارة ((يا رب لماذا ؟)) ... ليس هذا كله موجودا في مزامير داود فقط ، إنما نجد هذا الأسلوب في أسفار أخري في الكتاب المقدس ، وعند أنبياء و قدس كثيرين ...

عتاب قديسين أخرين

١- انظروا إلى ارميا النبي يعاتب الرب ، ويقول له أيضا : لماذا ... وذلك في قولة { أبر أنت يا رب من أن أخاصمك . و لكني أكلمك من جهة أحكامك : لماذا تنجح طريق الأشرار . اطمأن كل الغادرين غدرا } (إر ١٢ : ١)
إني أعجب من التراب و الرماد ، حينما يناقش الله في أحكامه ، ويقول له لماذا ؟ ! حقا إن القديس بولس الرسول يقول: { يا لعمق غني الله و حكمته وعلمه . ما أبعد أحكامه عن الفحص ، وطرقه عن الاستقصاء لانة من عرف فكر الرب ، أو من صار له مشيرا ؟ ! } (رو ١١ : ٣٣ ، ٣٤) .

ولكن ارميا النبي يقول هنا للرب : أكلمك من جهة أحكامك : لماذا ..؟

إنه شئ يا رب لم استطع أن أفهمه . شئ غريب أنك تترك الأشرار هكذا ينجحون { غرستهم فأصلوا . نموا وأثمروا ثمراً } { حتى متى تنوح الأرض ، وييبس عشب كل الحقل من شر الساكنين فيها ؟ !} (أر١٢ : ٤،٢)

لماذا يا رب يحدث هذا ؟ لماذا ينجح الأشرار ؟ أين عدلك ؟ أين محبتك للصلاح ؟!

أعطيني حلاً . أعطيني تفسيراً . أشرح لي أحكامك . { فهمني حقوقك . عرفني طرقك . أكشف عن عيني فأرى ... } (مز ١١٩) . أريد أن أفهم ، على قدر ما يستطيع عقلي أن يفهم ، لماذا تنجح طريق الأشرار ؟!
والرب يقبل هذا العتاب في هدوء . ويشرحه في موضع أخر : الأشرار كالدخان الذي يرتفع إلي فوق ، وفيما يرتفع يضمحل ويتبدد ، وتنظر إليه فلا تجده : { بعد قليل لا يكون الشرير . تتطلع إلي مكانه فلا يكون ... لأن الأشرار يهلكون .. فنوا ، كالدخان فنوا } (مز ٣٧ : ١٠ ، ٢٠)

الله غير المحدود غير المدرك ، يفتح صدره ، ويتفاهم مع أولاده ، حينما يقولون : لماذا ؟

٢- نفس عبارة لماذا ، قالتها عذراء النشيد :
أنها تعاتب الرب الذي تحبه بقولها { أخبرني يا من تحبه نفسي أين ترعي .. لماذا أنا أكون كمقنعة عند قطعان أصحابك } (نش ١ : ٧) . والرب لا يتضايق من عتابها بل يقول لها : { أن لم تعرفي .. فأخرجي على أثار الغنم } .. تتبعي خطوات القديسين ..
٣- مثال أخر ، مفتوح القلب جداً في العتاب مع الله ذلك هو أيوب الصديق ..
أنه يعاتب الرب في جرأة عجيبة ، ويستخدم أيضاً عبارة { لماذا ؟} فيقول له: { أشكو بمرارة نفسي . أبحر أنا أم تنين ، حتى جعلت على حارساً ؟ } { كف عني } (أى ٧ : ١١ ، ١٢ ، ١٦) أى إنسان منا ، لو قال عبارة { كف عني } لصديق له ربما ما كان يحتملها منه ولكن أيوب الصديق يقولها لله نفسه ، ويتابع عتابه قائلاً : لآ حتى متى لا تلتفت عنى ولا ترخيني ، ريثما أبلع ريقي } (أى ٧ : ١٩) . ثم يقولها بعدها :

{ أخطأت ؟ ماذا أفعل لك يا رقيب الناس }

{ لماذا جعلتني عاثوراً لنفسك ، حتى أكون على نفسي حملاً ؟ ولماذا لا تغفر ذنبي ولا تزيل أثمي ؟ } (أى ٧ : ٢٠ ، ٢١) .
من يستطيع أن يقول كلاماً مثل هذا لأحد من الناس ؟ ولكن أيوب في عتابه مع الله يقول له أكثر من هذا بكثير ؟ انة يقول له

{ لا تستذنبني . فهمني لماذا تخاصمني ؟ } (أى ١٠ : ٢)

{ أخاف من كل أوجاعي ، عالماً أنك لا تبرئني . أنا مستذنب ، فلماذا أتعب عبثاً . لو اغتسلت بالثلج ، ونظفت يدي بالأشنان ، فأنك في النقع تغمسني ، حتى تكرهني ثيابي } (أى ٩ : ٢٨ — ٣٠)

أتظنوا أن الله غضب من هذا العتاب ؟ كلا .

بل أن الله في أخر السفر ، حينما وبخ أصحاب أيوب الثلاثة الذين كانوا يثيرون نفسه المرة بالاتهامات الباطلة ، قال لهم : { لم تقولوا في الثواب كعبدي أيوب } (أى ٤٢ : ٧)

الله يحب العتاب

صدقوني لو لم تكن في هذا المزمور الثالث سوى عبارة { يا رب لماذا } لكانت كافية ، كعبارة معزية لنا ، تعلمنا العتاب مع الله ..

انظروا كيف أن أيوب الصديق يقول : { أبعد يديك عني ولا تدع هيبتك ترعبني .. أتكلم فتجاوبني .. اعلمني ذنبي وخطيتي لماذا تحجب وجهك ، وتحسبني عدواً لك ؟ أترعب ورقة مندفعة ، وتطارد قشاً يابساً ؟! } (أى ١٣ : ٢١ - ٢٥)

وألهنا الطيب لا يتضايق من عتاب أيوب .

ولا يعتبر المناقشة معه إقلاقاً لكرامته . كلا ، بل أن الله يحب أن نتكلم معه ونناقشه ، ويفرح بهذا ويسر ، لأن هذا العتاب دليل المحبة والدالة .

وأحياناً يفتح الله مجالاً للعتاب :

مثلما فعل مع أبينا إبراهيم ، حينما فتح معه موضوع إهلاك سادوم ، وقال له إبراهيم : { أفتهلك البار مع الأثيم ؟! .. حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر .. حاشا لك أديان الأرض كلها لا يصنع عدلاً ؟ } (تك ١٨ : ٢٣ - ٢٥) وفعل هذا أيضاً مع موسى النبي ، حينما غضب الرب على الشعب لعبادتهم العجل الذهبي فقرر إهلاكهم . وكلم موسى في الأمر فعاتبه موسى بنفس العبارة : { يا رب لماذا ؟ } وقال له { لماذا يحمي غضبك على شعبك الذي أخرجته من مصر بقوة عظيمة ؟ .. لماذا يتكلم المصريون قائلين أخرجهم بخبث ليقتلهم في الجبال .. ارجع عن حمو غضبك وأندم على الشر بشعبك } (خر ٣٢ : ١١ ، ١٢)
القديسون يناقشون الله . ولكن هوذا أمر أخر :

الله يدعو إلي هذا النقاش ويقول نتحاجج . يقول الرب :

{ إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيض كالثلج }.. (إش١:١٨)

إن الذين يهربون من وجه الله خائفين ، واضح أنه ليس فيهم الحب ولا الدالة . لقد هرب أدم من وجه الله وأختبأ خائفاً ، ولكن الله دعاه ليسأله ويكلمه . وهرب يونان من وجه الله ، ولكن الله دعاه وكلمه وعاتبه . وشرح المر وأقنعه (يو ٤) .

لا مانع إذن من أن نقول لله { يا رب لماذا ؟ } مثلما قال داود في المزمور الثالث .

مناسبة هذا المزمور

في الحقيقة يا أخوتي أن داود النبي ، حينما قال هذا المزمور كان يجتاز مأساة نفسية وعائلية ، بل أيضاً تجربة تهدد ملكه ، وربما تهدد حياته أيضاً ..

قاله وهو هارب من أبنه أبشالوم ، الذي تمرد عليه ، وأراد الاستيلاء على المملكة ..

والكتاب يشرح هذه القصة في عبارات مؤثرة قال فيها الوحي الإلهي { وأما داود فصعد في مصعد جبل الزيتون . كما يصعد باكياً ، ورأسه مغطى ، ويمشى حافياً وجميع الشعب الذين معه ، غطوا كل واحد رأسه ، وكانوا يصعدون وهم يبكون } (٢صم ١٥ : ٣٠) .

واخبروا داود أن مستشاره أخيتوفل قد اشترك في الفتنة مع أبشالوم بكل ما له من دهاء ومن معرفة بأسلوب داود . كذلك شمعي بن جيرا لاقي داود في الطريق ، وكان يشتمه ويرشقه بالحجارة قائلاً له { أخرج أخرج يا رجل الدماء ورجل بليعال } (٢صم ١٦ :٥ - ٧) .. { وكان الشعب لا يزال يتزايد مع أبشالوم } (٢صم ١٥ : ١٢) . ودخل أبشالوم أورشليم هو وكل الشعب الذين معه . وبناء على مشورة أخيتوفل { دخل أبشالوم إلي سراري أبيه أمام جميع إسرائيل } (٢ صم ١٦ : ١٥ ، ٢٢) . وهكذا كثر الذين يحزنون داود ، وأنقسم عليه كثيرين من شعبه وخانوه فوقف يرتل ويقول :

يا رب لماذا كثر الذين يحزنونني ؟

}
(كثر الذين يحزنونني} { كثيرون قاموا علي {
أو كما قال الشاعر ، عند كثرة همومه في داخله :
لو كان هماً واحداً لاحتملته *** لكنه هم وثان وثالث
فلماذا يا رب كل هذا ؟ ولماذا تترك لعبدك هذا الحزن ، ولكثرة المحيطين به القائمين عليه ؟

بالذات ، بالنسبة إلي أبشالوم ، لم يخطئ إليه داود في شيء ، بل دفعته خيانته وهو ابن !

فلماذا يا رب ؟!

كيف أن هؤلاء الناس الذين هتفوا وقت الانتصار على جليات ، ينقلب فيهم كثيرون وينضمون إلي ابن خائن ، وهم يعرفون تماماً أنه خائن لأبيه ؟!
داود توجه بشكواه إلي الله نفسه ، الله القادر على كل شيء ، الذي يستطيع أن يحول الشر إلي خير ، الله الذي نفس أبشالوم في يده ، وكذلك نفس اختيوفل ، ونفس شمعي بن جيرا ، ونفوس الشعب كلها .

داود لم تستقطبه الأحزان وتعصره فيتركز فيها ، إنما ترك الأحزان واتجه إلي الله ليصلي .

متاعبه جعلته يقول يا رب .. يا رب كيف يحدث كل هذا وأنت ترى وتسمع ؟!
أنت يا رب الذي أشكو لك ، وأنت وحدك الذي تستطيع أن تعزيني وتستطيع أن تقويني وأنت تنقذني . أنت وحدك . لأن الشكوى لغير الله مذلة كما يقول المثل .. حينما أتكلم معك أجد راحة .. أجد الراحة في داخلي ، مطمئناً إلي عملك وتدخلك . وأجد الراحة أيضاً في الخارج نتيجة لعملك من أجلي . أنت الصدر الحنون الذي أتكئ عليه وأقول له لماذا ؟ أو كيف يحدث هذا ؟

لو قلت للناس لماذا تحزنونني ، لكانوا يعيروني بخطاياي ويشمتون بي ..

فهكذا فعل شمعي بن جيرا ، دون أن أقول له شيئاً .. قال شامتاً { أخرج أخرج يا رجل الدماء .. قد رد الرب عليك كل دماء بيت شاول الذي ملكت عوضاً عنه .. وها أنت واقع بشرك } (٢صم ١٦ : ٧ ، ٨) .

ولعل هذه الضيقة التي أمر بها هي بسبب خطاياي .

الآن أتذكر يا رب كيف أنك أرسلت إلي ناثان النبي ، ليحمل إلي رسالة منك تقول { لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر في عينه . قد قلت أوريا الحثي بالسيف ، وأخذت آمراته لك امرأة .. والآن لا يفارق السيف بيتك .. قريبك يضطجع مع نسائك في عين هذه الشمس . قدام جميع إسرائيل } (٢ صم ١٢ : ٩ - ١٢) . أتراك عرفت لماذا كثر الذين يحزنونك ؟

ولكن داود على الرغم من خطيئته . يتذكر أيضاً قول ناثان النبي له :

{ الرب قد نقل عنك خطيتك . لا تموت }(٢صم ١٢ : ١٣) .

لقد نقلها ووضعها على الحمل الذي يرفع خطايا العالم كله (يو ١ : ٢٩) . إن داود يعرف تماماً قلب الله الحنون الذي هو نفسه يقول عنه : { لم يفعل معنا حسب خطايانا ولم يجازنا حسب آثامنا . لأنه مثل ارتفاع السموات فوق الأرض ، قويت رحمته على خائفيه . كبعد المشرق عن المغرب ، أبعد عنا معاصينا } (مز ١٠٣ : ١٠ - ١٢) . لذلك فإن داود يقول في مزاميره للرب :

أذكر يا رب رأفاتك ومراحمك ، فإنها ثابتة منذ الأزل . خطاياي شبابي وجهالاتي ، لا تذكر (مز٢٥ : ٦)

هل لا تزال تذكر لي يا رب تلك الخطية ؟! لقد تفاهمنا بشأنها ، واعتذرت لك عنها ، ونقلتها عني حسب وعدك الصادق الأمين . وأما أنا فبسببها كنت { أعوم في كل ليله سريري ، وبدموعي أبا فراشي } (مز ٦) . فكيف تذكر لي يا رب آثامي ؟! { إن كنت للآثام راصداً يا رب ، يا رب من يثبت ؟! الآن من عندك المغفرة } (مز ١٣٠) (لا تدخل في المحاكمة مع عبدك فإنه لن يتزكى قدامك أى حي } (مز١٤٢ : ٢) .

نعم يا رب لقد كثر الذين يحزنونني . ولكن يقيناً أنت يا رب لست منهم . لأنك أنت عزائي وخلاصي

لذلك فأنني في وسط ضيقاتي ، أمسكت مزماري ، لأرتل لك هذا المزمور . حقاً : { أمسرور أحد ، فليرتل } (يع ٥ : ١٣) . أما أنا فأرتل لك وأنا في عمق متاعبي . لأن مسرتي فيك .

لست أحسب هذه الضيقات تأديباً منك لي ، إنما أحسبها تقربني إليك .

أما خطيئتي أنت قد غفرتها . وإن كنت ترى هذه العقوبات الأرضية نافعة لي ، فأنا اقبلها بشكر ، ولكن ترفق بفتاك ، كما قلت أيضاً { ترفقوا بالفتى أبشالوم } (٢صم ١٨ : ٥) على الرغم من خيانته وكل أخطائه .. لذلك أنا أسال { كيف كثر الذين يحزنونني ؟! كثيرون قاموا على } ..

حقاً إن كل الضيقات ليست من أجل خطايا .

إن أصحاب أيوب الصديق أخطأوا في حقه وأثاروه ،إذا اتهموه بأن تجربته كانت بسبب خطاياه (أى ٤: ٧ ،٨) فخوفهم الله على ذلك لأنهم لم يقولوا الثواب (أى ٤٢ :٧) . والرجل المولود أعمى ، لما ظن التلاميذ أن عماه بسبب خطية ، أجابهم الرب قائلاً { لا هذا أخطأ ولا أبواه ، ولكن لتظهر أعمال الله فيه } (يو٩ : ٣) . والبابا القديس أثناسيوس الرسولي تألم كثيراً وهو بار . رسالته الثانية إلي كورنثوس (٢كو ١١) . والكتاب يقول :{ كثيرة هي أحزان الصديقين ، ومن جميعها ينجيهم الرب } (مز٣٤ : ١٩) والسيد المسيح وهو قدوس القديسين قيل عنه انه { رجل أوجاع ومختبر الحزن } (إش٥٣ : ٣) .

وعلى الرغم من أن بعض متاعب داود كانت بسبب خطيئته ، إلا أن كل متاعبه لم تكن هكذا ..

فقد صادف متاعب كثيرة جداً في حياته من شاول الملك ، وكان داود وقتذاك في عمق صلته بالرب ، وقد حل روح الرب عليه .. وهذه المتاعب الحاضرة ، وإن كان الرب قد أنذره بشيء منها في (٢صم ١٢) . إلا أن داود ما كان يظن أن الضيقة ستأتي بهذا العنف ، وأن الذين يحزنونه سيكون بهذه الكثرة ، لذلك عاتب الرب قائلاً : { يا رب كيف كثر الذين يحزنونني . كثيرون قاموا على }

كانت الأحزان مع داود في بره وفي خطيئته .

لم تفارقه أبداً ، منذ صباه . ومزاميره تتحدث عن تفاصيل منها . وهنا يرى الأمور قد وصلت إلي خطورة . فيصرخ إلي الرب قائلاً :

كثيرون قاموا على

ولعله شرح كلمة (كثيرين) بعبارة { ربوات الجموع المحيطين بي القائمين على } (مز٣ : ٦) . هل إلى هذه الدرجة يا رب تسمح أن كل هؤلاء يقومون على ؟! أأنا أخطأت ؟ لقد اعترفت بهذا . ولكن قبل تلك الخطية قد كثر الذين يحزنونني . { مراراً كثيرة حاربوني منذ صباي } (مز ١٢٩ : ١) . بل استطيع أن أقول { أكثر من شعر رأسي ، الذين يبغضونني بلا سبب } (مز ٦٩ : ٤) { أحاطوا بي واكتنفوني . أحاطوت بي مثل النحل حول الشهد ، والتهبوا كنار في شوك } (مز ١١٨ : ١١ ، ١٢) .

إنه عزاء كبير لنا ، أن نبياً عظيماً مثل داود ، تعرض لمضايقات الكثيرين ..

وعزاء أكبر أنه نجا من كل تلك الضيقات . وشعره واحدة لم تسقط من رأسه . بل { نجا مثل العصفور من فخ الصيادين } (مز ١٢٤ : ٧) مبارك الرب الذي لم يسلمه فريسة لأسنانهم .. حقاً أنه { بضيقات كثيرة ينبغي أن نرث ملكوت الله } (أع ١٤ : ٢٢)

انظروا كم من ضيقات كثيرة تعرض لها يوسف الصديق

كثيرون قاموا عليه ، حتى أخوته . القي في بئر ، وبيع كعبد . وقامت ضده امرأة سيدة ، ولفقت له تهمة وهو البريء . وقام ضده فوطيفار ، فآخذه ووضعه في بيت السجن (تك ٣٩ : ١٧ ، ٢٠) أتراه قال هذه العبارة قبل داود { يا رب كيف كثر الذين يحزنونني }

المؤمن عموماً محاطاً بأحزان وضيقات ..

لأبد أن يدخل من الباب الضيق ، ويسير في الطريق الكرب ، ويحمل صليبه باستمرار ، ويخرج إلي الرب خارج المحلة حاملاً عاره (عب ١٣ : ١٣) . إن الرب لم يخف عنا ، بل قال لنا بوضوح : { في العالم سيكون لكم ضيق } (يو ١٦ : ٣٣)

ولكن حيثما توجد التجارب ، يوجد الله المنقذ .

توجد المعونة الألهية التي تعطي عزاء وخلاصاً . إن الكتاب لم يقل فقط : { كثيرة هى أحزان القديسين } بل قال بعدها مباشرة { ومن جميعها ينجيهم الرب } ولم يقل فقط : { في العالم سيكون لكم ضيق } بل قال بعدها { لكن ثقوا أنا قد غلبت العالم }

أتذكر أنه في فترة ما ، كانت العصافير تشكل خطورة كبيرة على مؤونة الدير ..

كانت تأكل المحاصيل بعنف ، وكذلك الفاكهة .. وفيما أنا نازل من الدير ، سألت الآباء : { هل تريدون شيئاً أحضره لكم معي ؟ } . فقال أحد الآباء الكبار : { نريد فخاً لكي نصيد به العصفور } فقالت له : { سأحضره لكم . ولكن العصفور سأعلمه مزمور } فسألني : [أى مزمور ستعمله للعصفور ؟] فأجبته : [المزمور القائل : { نجت أنفسنا مثل العصفور من فخ الصيادين . الفخ أنكسر ونحن نجونا .. عوننا من عند الرب الذي صنع السماء والأرض } (مز١٢٤)] . نعم ، إن الفخ موجود في طريق المؤمنين . ولكن معونة الرب موجودة أيضاً ..

على أن الخطورة التي صادفت داود ، لم تكن مجرد أن كثيرين قاموا على ..

عبارة { كثر الذين يحزنونني } يمكن احتمالها . وعبارة { كثيرون قاموا على } يمكن احتمالها أيضاً . أما الأمر الذي لا يحتمل فيمكن في عبارة { كثيرون يقولون لنفسي : ليس له خلاص بإله ..! } .

ليس له خلاص بإله

إن داود يعلم تماماً أن كل متاعبه السابقة ، وكل الأخطار التي حاقت به ، كان الله هو الذي خلصه منها . لقد خلصه الله من الأسد والدب ، حينما أخذا شاه من قطيعه . وكذلك الرب هو الذي خلصه من جليات . لذلك قال لشاول : { الرب الذي أنقذني من يد الأسد ومن يد الدب ، هو ينقذني من يد الفلسطيني } (١صم ١٧ : ٣٧)

وعبارة { الخلاص للرب { أو} الحرب للرب { من العبارات المشهورة جداً في فم داود وفي مزاميره

إنه يقول لجليات : { الحرب للرب ، وهو يدفعكم ليدنا } (١صم ١٧ : ٤٧) . ويقول له أيضاً { أنت تأتي إلي بسيف وبرمح وبترس ، وأنا آتي إليك بأسم رب الجنود .. هذا اليوم يحبسك الرب في يدي .. } (١صم ١٧: ٤٥، ٤٦)

وهكذا يقول بالنسبة إلي أعدائه : { أحاطوا بي مثل النحل حول الشهداء ، وباسم الرب انتقمت منهم .. دفعت لأسقط ، والرب عضدني . قوتي وتسبحتى هو الرب ، وقد صار لي خلاصاً } (مز ١١٨) .

وكما كان الله خلاصاً لداود من الأسد والدب ، ومن جليات ، كذلك كان له خلاصاً من شاول الملك

كم من مرة أراد شاول أن يقتله ، وكم مرة طارده من برية إلي برية . وكان الرب هو الذي يخلص داود . ولذلك قال داود لشاول . { الرب يقضي بيني وبينك } (١صم ٢٤ : ١٢، ١٥) .

ولما وقع شاول في يد داود ، قال لشاول : { قد دفعك الرب اليوم ليدي ، ولم أشأ أن أمد يدي إلي مسيح الرب . هودا كما كانت نفسك اليوم عظيمة في عيني ، كذلك فلتعظم نفسي في عيني الرب ، فينقذني من كل ضيق } (١صم ٢٦ : ٢٣ ، ٢٤) .

فإن كان الرب ينقذه من كل ضيق ، إذن ما أخطر هذه الشماتة أنه ليش خلاص بإله .. ؟

إنهم يوفونه بهذا الأمر المرعب ، أنه ليس له خلاص بإله . وهذا التخويف لم يصدر من فم إنسان واحد ، بل يشكو داود في صلاته صائحاً { كثيرون يقولون لي ليس له خلاص بإله .. !}

إنه يصارح الرب بما يقوله الناس . ولكنه لا يصدق إطلاقاً هذا الذي يقولونه ..

خبراته مع الله المحب ، الله المعين ، المنقذ والمخلص .. وحياة الإيمان التي يحياها .. ووعود الله له .. كل هذا لا يجعله يصدق كلام الشماتة الذي يسمعه منهم . ربما يبدو أن الله قد { تأخر} عليه ، وأن معونته لم تأت حتى الآن .. ولكنها لابد آتية ! ، ولو في الهزيع الأخير من الليل ..

الله لن يتركه . مستحيل .. الخلاص آت ، لاشك في هذا .. مهما تأخر..

يقول لنفسي { ليس له خلاص بإله } .. لأنهم أعداء ، ولأنهم شامتون بما حدث لي . شامتون بخيانة أبشالوم وخيانة أخيتوفل ، وشتائم شمعي بن جيرا ..شامتون لأني خرجت من أورشليم حافياً وباكياً .. ولكنهم يقولون هذا الكلام بالأكثر ، لأنهم لا يعرفون الله ، ولا يعرفون محبته لي ، ولا علاقته بي .!

لذلك فإن داود قال بعدها : سلاه . وهي لإشارة لوقفة موسيقية ..

أي أنه يقول لفرقة الموسيقيين التي تتابعه في إنشاده . قفوا هنا لنتأمل هذا الأمر ، وأيضاً نغير اللحن . بل نغير هذا الذي يقوله الأعداء والشامتون .. وقفة هنا . لأني لا أقبل هذا الكلام .

إنها أول مرة ترد فيها كلمة } سلاه { في مزامير داود

لم ترد في المزمور الأول ، ولا في المزمور الثاني . وهنا ترد لأول مرة في المزمور الثالث . وقد وردت ٧٤ مرة في مزامير داود . عبارة عن وقفة موسيقية لتغيير اللحن ، وربما لتقديم معنى جديد وفكر جديد .. بل قفوا أيها الموسيقيون ، لأني بدلً من الكلام عن الناس ، سأتكلم مع الله . لي حديث معه عما يقوله الناس ..

حقاً يا رب أنني أخطأت إليك ، } والشر قدامك صنعت { (مز ٥٠) . ولكنك لا يمكن أن تتخلى

إن تخلى عني الكل ، فأنت لا تتخلى . وإن لن يتقدم أحد لخلاصي ، فهذا أمر لا يتعبني ، بل ولا يدهشني . المهم أنك أنت لا تتخلى ، لأن الخلاص هو من عندك . ومهما كنت خاطئاً ، فأنت { لم تصنع معنا حسب خطايانا } . محال أن أصدق أنك تنظر إلي في ضيقتي ولا تبالي ! لأني أنا عبدك وابن أمتك (مز ١١٥) . ومهما أخطأت : يدك يا رب على ، يدك لا عصاك . وحتى إن كانوا كثيرون قد قاموا على ، وأرادوا لي الموت ، فأنا { إن سرت في وادي ظل الموت ، لا أخاف شراً ، لأنك أنت معي } (مز ٢٣) .. { إن يحاربني جيش ، فلن يخاف قلبي . وإن قام علي قتال ففي ذلك أنا مطمئن } (مز٢٧ : ٣)

عبارة} ليس له خلاص بإله { ، هي عبارة تشكيك في معونة الله . أنها من عمل الشيطان ..

هو الشيطان الذي وضع هذا الكذب وهذا الإدعاء في أفواههم ، لكي يقلل إيماني بك وبمحبتك ومعونتك ، لكي يدفعني إلي اليأس والاستسلام ، لكي يشكك الناس أيضاً في مساندة الله لأولاده . أما انا فلا أيأس أبداً من معونتك .

مهما } تأخرت { معونتك ، فأنا مازلت أنتظرك ، في ثقة وفي إيمان ..

{ الرب عوني فلا أخشى ماذا يصنع بي الإنسان . الرب لي معين ، وأنا أرى أعدائي } (مز١١٨ : ٦ ، ٧) .
بهذه الثقة أنتظر الرب ، وانتظر الرب من محرس الصبح إلي الليل (مز ١٣٠) .

حتى إن كان الله يعاقب أحياناً ، فإنه شفوق في عقابه .

لذلك فأنا { أقع في يد الله ، ولا أقع في يد إنسان ، لأن مراحم الله واسعة } (١ أى ٢٠ :١٣) . الله الذي لا يقصف قصبة مرضوضة ، ولا يطفئ فتيلة مدخنة (مت ١٢ : ٢٠) . الله الذي { يجرح وعصب } (أى ١٥ : ١٨) .

عبارة } ليس له خلاص بإله { تذكرني بالكلمات القاسية التي تلفظ بها أصحاب أيوب

كم كان أشدها أيلاماً لنفس متمرمرة ، جرحوا بها إنساناً باراً . ولكن الله بكتهم (أى ٤٢ : ١٠) .. وفيما بكتهم { رد الله سبى أيوب } (أى ٤٢ : ١٠) . لأن الله لا يترك أولاده . وهكذا نحن { متحيرين لكن غير بائسين . مضطهدين لكن غير متروكين . مطروحين لكن غير هالكين } (٢ كو ٤ : ٨ ، ٩) . فليقل الناس إذ ما يقولون .. وليستخدموا أسلحة الشماتة والتشكيك .
أما أنا يا رب ، فإني أعرف من أنت :
أنت يا رب ناصري (١) ، مجدي ورافع رأسي .

أنت يا رب ناصري

وكأني بالبعض يسمع داود فيتعجب .. ماذا تقول أيها المسكين ؟ { ناصري ؟! ومجدي ؟! ورافع رأسي ؟! } كيف هذا ؟ وأنت قد خرجت باكياً وحافياً ، وكل الذين وراءك يبكون معك !! وصديقك حوشاي الأركي لما أتى للقائك ، جاءك ممزق الثوب والتراب على رأسه (٢صم ١٥ : ٣٢) ! هل في هذا مجد ونصرة ؟! وهوذا شمعي بن جيرا يشتمك ويقول : { اخرج يا رجل الدماء ورجل بليعال } وأنت تقول لاصحابك في مذلة : { دعوه يسب ، لأن الرب قال له سب داود .. لعل الرب ينظر إلي مذلتي ..} (٢صم ١٦ : ٥ - ١٢) . هل تقول بعد كل هذا { مجدي ورافع رأسي } ؟!

ولكن داود قال عبارته هذه بروح الإيمان ، غير ناظر إلي ما هو فيه ، وإنما إلي معونة الرب الآتية . لم يكن يحيا في الضيق الحاضر ، وإنما في الفرح المقبل ، وفي قلبه } الإيقان بأمور لا ترى { (عب ١١ : ١)

كان وهو في مرارة ضيقته ، يرى خلاص الرب ماثلاً أمامه ، حتى قبل أن يأتي . أنها فضيلة الرجاء ، التي لا تعرف ضيقاً ولا يأساً . وليس الرجاء فقط ، وإنما أيضاً { الثقة بما يرجى } (عب ١١ : ١) . يتدرج منها الإنسان المؤمن إلي قول الرسول : { فرحين في الرجاء } (رو ١٢ : ١٢)

المتاعب موجودة والله أيضاً موجود . الإيمان به وبعمله ، يغطى على كل المتاعب ، فلا نراها ، إنما نرى عمل الله ونفرح به ونتغنى به في مزاميرنا

ونقول في عمق المتاعب : { أنت يا رب ناصري . مجدي ورافع رأسي } . أنت يا رب ضابط الكل . أنت لم تخلق الكون وتتركه . إنما أنت ترعاه . أنت تنظر إلي كل ما يحدث على الأرض ، وتقيم العدل بين الناس .
وكما قال نبيك ملاخي : { والرب أصغي وسمع ، وكتب أمامه سفر تذكرة } (ملا ٣ : ١٦)

أتراك لم تنظر أبشالوم وشمعي وأخيتوفل ؟ كلا بل رأيتهم في غرورهم وثورتهم وخيانته ، ورأيتني فيما أنا فيه من ظلم و مذلة

هذا انا اسمع صوتك

{ من اجل شقاء المساكين وتنهد البائسين، الآن أقوم - يقول الرب-اصنع الخلاص علا نية } (مز ١١)

وداود يحس بهذا تماما، فيقول في كثير من المناسبات آن الله ترس لي (مز٣:٣) درع واق من كل ضربات الأعداء . ترس أو درع من كل سهام شاول الملك(٢صم١٠) بل من { كل سهام الشرير الملتهبة } (أف ٦ :١٦) . نعم انه الله الذي :{ لا يترك عصا الخطاة تستقر على نصيب الصديقين . . . } (مز ١٢٥ : ٣) .

إنه أله المساكين والضعفاء والعاجزين أمام من هو أقوي منهم ..

نقول له في صلواتنا الطقسية : { يا معين من ليس له معين ، ورجاء من ليس له رجاء ، وعزاء صغيري النفوس ، ميناء الذين في العاصف } . ويقول داود النبي : { جميع عظامي تقول يا رب من مثلك : المنقذ المسكين ممن هو أقوى منه ، والفقير والبائس من سالبه } (مز ٣٥ : ١٠) .

لذلك بينما يعتمد الأقوياء على أنفسهم ، نجد الضعفاء يصرخون إلي الله ..

إن داود لم يصرخ إلي الله ، حينما كان شاعراً بقوته وبقدرته على ضرب نابال الكرملي (١صم ٢٥ : ١٣ ، ٢٢) . ولكنه صرخ إلي الله وهو شاعر بعجزه أمام شاول ، وبعجزه أمام أبشالوم ، بسبب قوتهما من جهة . ومن جهة أخرى لأن شاول هو مسيح الرب وأبشالوم هو ابن داود . لذلك فهو عاجزاً عن ضربهما لأسباب نفسية في داخله ، وأيضاً لأنهما لا يباليان بأي تصرف بسبب انحدار مستواهما الروحي .. ولهذا فإنه يصرخ إلي الله : يا رب كيف يحدث هذا ؟ كيف كثر الذين يحزنونني ؟

حقاً ، كلما وقف الإنسان ضعيفاً أمام الله ، كلما كان مستحقاً لمعونته الإلهية

لأنه من عمل الرب أن يبشر المساكين ، ويعصب منكسري القلوب (أش ٦١ : ١) . وكما قال الرب في رعايته لغنمه : { أنا أرعى غنمي وأربطها .. وأجبر الكسير ، وأعصب الجريح .. } (خر ٣٤ : ١٥ ، ١٦) . وهنا كان داود في موقف الكسير الجريح . لم يكن الملك العظيم الجالس على عرشه ، وإنما كان الملك الطريد الهارب من وجه أعدائه ..

إن القوى عرضه للسقوط أكثر من غيره ، غالباً بسبب كبريائه واعتزازه وبقوته !

لأنه { قبل الكسر الكبرياء ، وقبل السقوط تشامخ الروح } (أم ١٦ : ١٨) . فالأقوياء من فرط غرورهم بقوتهم لا يحترسون ، فيسقطون لقلة الحرص . ومن ثقتهم بأنفسهم لا يشعرون بحاجتهم إلي قوة خارجية ، فلا يصلون طالبين معونة . وإذ يبعدون أنفسهم عن عمل النعمة يسقطون . ولذلك قيل عن الخطية أنها : { طرحت كثيرين جرحى ، وكل قتلاها أقوياء } (أم ٧ : ٢٦) .

وكان داود يصلي لينقذه الرب من الأقوياء

كان يقول : { اللهم باسمك خلصني .. فإن الغرباء قد قاموا على ، والأقوياء طلبوا نفسي . لم يجعلوا الله أمامهم } (مز ٥٤ : ١ ،٣) . وهكذا كان كل الأقوياء الذين قاموا ضد داود : الأسد والدب ، وجليات ، وشاول ،وأبشالوم . وكلهم { لم يجعلوا الله أمامهم } واختبر داود كيف أن الله نصره ضد كل هؤلاء .فقال له هنا : { أنت ناصري رافع رأسي } أنت كنت درعاً وترساً لي ، اصد به كل سهام أعدائي .. وهكذا لم يمت شاول بيد داود ، ولا مات أبشالوم بيد داود ، لأن الحرب للرب الرب هو الذي خلصه منها ..

حقاً ، كما قال موسى النبي : { لا تخافوا قفوا وانظروا لاص الرب .. الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون } (خر ١٤ : ١٣ ، ١٤) وبالنسبة إلي داود ، لم يكن الرب فقط ترساً له ، درعاً يصد الهجمات ، إنما يقول عنه بالأكثر : { مجدي ورافع رأسي } ..

مجدى ورافع رأسي

هوذا الرب يقول عنه في المزمور : { لأنه تعلق بي أنجيه . أرفعه لأنه عرف أسمي .. معه أنا في الضيق : أنقذه وأمجده } (مز ٩١ : ١٤ ، ١٥) . لم يقل فقط : { أنجيه } ، إنما قال بعدها أيضاً { أرفعه } . ولم يقل فقط { أنقذه من الضيق } ، وإنما قال أكثر من هذا : { وأمجده } . وهذا هو الذي حدث مع داود .

أنقذه الرب من جليات الجبار . وأيضا مجده الله في هذه المناسبة ورفع رأسه .

فخرجت النساء تغنين بالدفوف والفرح والرقص قائلات : { ضرب شاول ألوفه ، وداود ربواته } (١صم ١٨ : ٦ ، ٧) .

وتعين داود رئيساً على رجال الحرب ، ونال محبة جميع الشعب ، وألبسه الأمير يوناثان ثيابه وقوسه ومنطقته ، وبعد هذا أمكن أن يتزوج داود ميكال ابنه الملك ، وأعانه الله في إنتصارات أخرى (١صم ١٩) بل قيل عنه أيضاً : { كان داود يفلح أكثر من جميع عبيد شاول فتوقر أسمه جداً } (١صم ١٩ : ٣٥) .

كذلك لم ينقذه الرب فقط من شاول الملك ، إنما مجده بعدها ورفع رأسه .

مات شاول الملك الذي كان يطلب نفسه . وهكذا تخلص داود من كل محاولات شاول لقتله . وبموت شاول رفع الله داود إلي كرسي الملك ، فأتوا ومسحوه ملكاً على بيت يهوذا (٢صم ٢ : ٤) .

{ وكان داود يذهب يتقوى ، وبيت شاول يذهب يضعف } (٢صم ٣ : ١) . وخلصه الرب من أبنير قائد جيش شاول ، فمات (٢صم ٣ : ٣٠) { وجاء جميع أسباط إسرائيل إلي داود إلي حبرون ، وتكلموا قائلين هوذا نحن عظمك ولحمك .. ومسحوا داود ملكاً على إسرائيل } (٢صم ٥ : ١ ، ٣) . واستقر له الأمر كملك على الشعب كله .. ورفع الله رأسه .

تذكر داود كل هذا ، عند قيام أبشالوم ضده . ونال عزاء داخلياً من ذكرياته فقال :

> **بصوتي إلي الرب صرخت**
> **فأستجاب لي من جبل قدسه**

لا شك أن القلب يتعزى ، وإيمانه يتقوى، كلما يذكر إحسانات الله السابقة إليه ، وكلما يذكر صلواته التي استجابها الله من قبل .. هذه الذكريات تشعر الإنسان بمحبة الله وعمله ، فيقول لنفسه : أن الذي استجاب في القديم ، هو أيضاً يستجيب الآن وكل آوان . وهكذا نحن نقول في القداس الألهي :

{ يالذي بارك في ذلك الزمان ، الآن أيضاً بارك } ..

خلاص الرب لداود ، كان هو قصة حياته كلها . كلما تذكر تفاصيل حياته ، يذكر خلاص الرب . ولهذا نجد في الكتاب عبارة معزية جداً ، يقول فها الوحي الإلهي : { وكان الرب يخلص داود حيثما توجه } (٢صم ٨ : ٦).

هذا الخلاص لم يستطع داود أن ينساه في وسط ضيقاته . بل هذا الخلاص لا تنساه الكنيسة كلها ..

التاريخ طويل ، حافل بالذكريات المحببة للنفس . إن الذي أنقذ من نيرون هو الذي أنقذ أيضاً من ديوقلديانوس ومن أريانوس والى أنصنا ، ومن كثيرين بعدهم . وكل آلة صورت ضد أولاد الله لم تنجح (أش ٥٤ : ١٧) .

وبهذه الذكريات يتعزى القلب الصارخ إلي الله ، مهما كانت الصعوبات الواقفة أمامه . يتذكر قول الرب عن زر بابل ، عند إعادة بناء الهيكل .

{ من أنت أيها الجبل العظيم ؟! أمام زر بابل تصير سهلاً } (زك ٤ : ٧)

كثيراً ما صرخ داود إلي الله فأستجاب له . ولم ينس هذه الاستجابة ، بل تذكرها ليتعزى بها .. إنه لم يعش حياة سهلة ، وإنما صار في طريق محفوف بالضيقات والمتاعب ، وقد نجاه الرب بصلوات مستجابة ، حتى قال : { كثيرة هى أحزان الصديقين ، ومن جميعها ينجيهم الرب . يحفظ الرب جميع عظامهم ، وواحدة منها لا تنكسر } (مز ٨٣) .

خبرات الإنسان مع الله ، تشجعه في وقت الضيق . وهنا داود يتذكر خبراته ..

{ بصوتي إلي الرب صرخت فاستجاب لي } . وعبارة { صرخت } تدل على عمق الصلاة وعمق الحاجة ، وعمق الشدة التي هو فيها . ومزامير داود مملوءة بصراخه إلي الرب . ويمكن أن تتبعوا كلمة صرخت فيباقي المزامير . نجد لها مثيلاً في صلاة يونان وهو في بطن الحوت .. كان ولا شك في شدة يناسبها الصراخ . فقال للرب : { صرخت من جوف الهاوية ، فسمعت صوتي } (يون ٢ : ٢) . صرخت والرب استجاب { وأمر الرب الحوت فقذف يونان إلي البر } (يون ٢ : ١٠) .

الإنسان يرفع صلواته إلي أقداس الله ..

لذلك يقول هنا : { استجاب لي من جبل قدسه } . ويقول في (مز ١٩ ، ٢٠) { الآن علمت أن الرب خلص مسيحه .. واستجاب له من سماء قدسه } . لذلك من المفروض أن تكون الطلبات مقدسة ، أو على الأقل طلبات تتفق مع مشيئة الله ..

يستطرد داود في ذكر خبراته مع الله فيقول :

أنا أضطجعت ونمت ثم استيقظت

عجيب أن داود يستطيع أن يضطجع وينام ، مع وجود كثيرين يحزنونه ، وربوات من الجميع محيطين به . الوضع العادي أن يطير النوم من عينه ، وسط هذه الأحزان والتهديدات الخارجية .. انظروا ماذا قيل عن داريوس الملك ، حينما ألقى دانيال في جب الأسود .. يقول الوحي الإلهي عنه : { حينئذ مضى الملك إلي قصره ، وبات صائماً .. وطار عنه نومه } (دا ٦ : ١٨) .

ولكن على الرغم من الضيقات ، ينام الإنسان الذي يكون قلبه مملوءاً بالإيمان وبالسلام ..

بمثل هذا الإيمان وهذا السلام ، نام بطرس الرسول في السجن محروساً بأربعة من العسكر ، وقد نوى الملك هيرودس أن يسلمه بعد الفصح إلي اليهود (بعد ايام) ليقتلوه (أع ١٢ : ٣ ، ٤) . ولم ينام نوماً قلقاً ، وإنما نوماً ثقيلاً ، لدرجة أن الملاك الذي جاء لإنقاذه ، ضربه في جنبه لإيقاظ (أع ١٢ : ٧) .. وهكذا اضطجع داود ونام ..

الضيقات كانت خارجة ، تضغط من الخارج ، ولو تدخل إلي داخل نفسه فتقلقه وتمنع عنه النوم

ولذلك استطاع أن ينام ، ليس نوم الغفلة ، ولا نوم الموت ، ولكن نوم الثقة . نام في أحضان الله الحنون . أبشالوم ومعه الجيش يطارده ، وهو في البرية ينام . تاركاً الرب يستر ويحفظ ..

كان داود في نومه ، أكثر اطمئنانا من أبشالوم المعتزل بقوته .. لذلك قال : } أنت اضطجعت ونمت { ..

ولكنني حينما أصل في تأملاتي معكم إلي هذه الآية بالذات ، أتذكر أننا نذكرها في ليلة الجمعة الكبيرة في وقت (الدفنة) ، حينما نتذكر في الطقس دفن السيد المسيح ، ونقرأ المزامير ..

نصلي المزمور إلي عبارة } اضطجعت ونمت { التي تتنبأ عن موت المسيح . ثم نمت ولا نكمل المزمور

. وفي صلاة ليلة القيامة ، نكمل ونقول : } ثم استيقظت { تشير إلي قيامة السيد المسيح ..

فالنوم يرمز أحياناً إلي الموت . وحينما تكلم الرب عن موت لعازر ، قال لتلاميذه القديسين : { لعازر حبيبنا قد نام ، لكني أذهب لأوقظه } (يو ١١ : ١١) وكان يتكلم بالرمز عن موت لعازر . ويقصد بكلمة { أذهب لأوقظه } أي أذهب لأقيمه من الأموات . وهنا نفس المعنى في عبارة { أنا اضطجعت ونمت ثم استيقظت } .. بالنسبة إلي السيد المسيح . وهذا التفسير يدلنا على أن هناك ثلاث اتجاهات في تفسير هذا المزمور وتأملاته :

ثلاث تفاسير لهذا المزمور

١- الإتجاه الأول في التفسير ، خاص بداود الملك ومتاعبه وأحزانه . ومثاله كل ما قلناه في الصفحات السابقة

٢- الاتجاه الثاني في التفسير ، خاص بالسيد المسيح له المجد ومثاله ما قلنا في تطبيق الآية : { أنا اضطجعت ونمت ثم استيقظت } على موت السيد المسيح وقيامته . وهو منهج واضح في طقس الجمعة الكبيرة . وهو أيضاً المنهج الذي يستخدمه القديس أوغسطينوس في تفسير كثير من المزامير .

٣- الاتجاه الثالث في تفسير هذا المزمور ، هو اتجاه روحي ، ينطبق على كل إنسان في حياته الخاصة . وسنعرض له أن شاء الله في صفحات مقبلة من هذا الكتاب ..

التفسير الخاص بالسيد المسيح

١- نبدأ من أول المزمور . ونرى السيد يقول للآب : { يا رب ، كيف كثر الذين يحزنونني كثيرون قاموا على ؟! } كيف أمكن أن يجتمع ضدي كل هؤلاء في كثرتهم : الكتبة والفريسيين والصدوقيين والشيوخ والكهنة ورؤساء الكهنة ، وهذه الجموع من الشعب الذي أحسنت إليه .. ! حقاً أنه أمر يدعوا إلي العجب .

٢- وعجيب أيضاً أن يظنوا أنني أريد الخلاص من الصليب (مت ٢٧ : ٤٢) ! ويقولون عني في ذلك : { ليس له خلاص بإله } ! { أتركه لنرى إيليا ليخلصه } (مت ٢٧ : ٤٩) . وكانوا يستهزئون به قائلين : { أن كنت أنت المسيح فخلص نفسك } (لو ٢٣ : ٣٩) . وكانوا يرون أن موته هو نهايته وأنه لن يكن له خلاص بعد ذلك .

٣- أما أنت يا رب فعوني ، ناصري على كل هؤلاء ، مجدي ورافع رأسي . في نفس عملية الصليب مجد للابن ، وفي قيامته مجد قال حينما اقترب إلي الجلجثة { أيها الأب قد آتت الساعة . مجد أبنك ليمجدك أبنك أيضاً } (يو ١٧ : ١) كان يرى مجده في صليبه . مجد الحب والبذل ، ومجد القضاء على دولة الشيطان ، وشراء الخليقة بالدم الكريم . مجد الملكوت الذي سيؤسسه بدمه . مجد الفداء والكفارة . المجد الذي سيرفع رأسه كمخلص للعالم كله بموته . لأنه بموته سيدوس الموت ، ويدوس إبليس الذي أدخل الموت إلي العالم . هذا هو المجد أن الابن سحق رأس الحية على صليبه ومجده في القيامة أمر واضح للكل .

٤- { أنا اضطجعت ونمت ثم استيقظت } . أنا لم أمت الموت الذي يظنونه النهاية .. فروحي خالدة لا تموت . وأنا بلاهوتي حتى لا أموت . إنما هذا الموت أشبه بنوم استيقظت منه بالقيامة . حقاً انفصلت فيه الروح عن الجسد ، لتوفي العدل الإلهي ، صم عادت إلي جسدها بقيامة مجيدة داست بها الموت إلي الأبد .

٥- لذلك { لا أخاف من ربوات الجموع المحيطين بي القائمين على } الصارخين في جهالة قائلين : { أصلبه أصلبه } غالبية هؤلاء سيرجعون إلي تائبين لينضموا إلي الإيمان .. وليس لأحد من هؤلاء سلطان على . لي نفس أنا أضعها من ذاتي . { أضع نفسي لآخذها أيضاً . ليس أحد يأخذها مني . لي سلطان أن أضعها . ولي سلطان أن آخذها أيضاً } (يو ١٠ : ١٧ ، ١٨) ..

التأمل الروحي لأي إنسان

١- إما أن يطبق المصلي هذه الآيات على نفسه في مشاكله وأحزا نه وكثرة الأعداء المحيطين به .

٢- وإما أن يأخذها بطريقة روحية ، فينادي الرب طالباً عوناً في حروبه الروحية قائلاً : كيف يا رب كثر الذين يحزنونني . كثيرون قاموا على : حروب من الأفكار ، وحروب من الحواس ، وحروب من مشاعر القلب وشهواته ، وحروب من الشياطين ، وعثرات من الناس ، وسقطات من اللسان ..

٣- وكل هذه الحروب في ضغطاتها ، تشمت بسقطاتي ، وتحاربني باليأس قائلة { ليس له خلاص بإله } .. كما لو كان الرب قد تركني ، ونعمته قد تخلت عني ، وأسلمني للهلاك ..

٤- ولكنك يا رب بقلبك الحنون ، لن تتركني في خطاياي . أنت ترس لي . أنت ناصري . لابد ستقيمني من سقطتي ، وتردني إلي رتبتي الأولي ، وتغسلني فأبيض أكثر من الثلج ، وتمنحني بهجة خلاصك وتعود فترفع رأسي ، وترجعني إلي صورتي الأولي ، فأتمجد بك .

٥- هكذا فعلت مع الخاطئة يهوذا في سفر حزقيال النبي . قلت : { رأيتك مدوسة بدمك فبسطت ذيلي عليك وسترت عورتك .. ودخلت معك في عهد — يقول السيد الرب فصرت لي . فحممتك بالماء { أي في المعمودية } ومسحت بالزيت أي { بمسحة الميرون المقدسة } .. وألبستك مطرزة وكسوتك بزاً { أي تبررات القديسين } .. ووضعت تاج جمال على رأسك .. وجملت جداً جداً ، فحصلت لمملكة . وخرج لك أسم في الأمم لجمالك ، لأنه كان كاملاً ببهائي الذي جعلته عليك } (حز ١٦ : ٦ — ١٤) .

٦- وهكذا يجد الخاطئ أن الله يرفع رأسه ، بل يضع تاج جمال لى رأسه .
وذلك بأنه يطهره وينقيه من كل نجاساته ، كما وعد في سفر حزقيال قائلاً : { وأرش عليكم ماء طاهراً فتطهرون من كل نجاستكم .. أعطيكم قلباً جديداً ، وأجعل روحاً جديدة في داخلكم . وانزع قلب الحجر من لحمكم وأعطيكم قلب لحم وأجعل روحي في داخلكم وأجعلكم تسلكون في فرائضي } (حز ٣٦ : ٢٥ - ٢٧) ..
كل هذا يا رب .

٧- حقاً أنت يا رب ناصري . ومجدي ورافع رأسي . وقد كذب الذين قالوا عني : ليس له خلاص بإله .
إن كنت قد سقطت ، فأنا بمعونتك سأتوب .. لقد اختبرت هذا في حياتي ، لأني مراراً كثيرة { اضطجعت ونمت ثم استيقظت } لأنك أنت يا رب ناصري على كل ضعفاتي .. ما أكثر ما أصابني الخمول في روحياتي ، ثم تأتي بعده يقظه روحية ، أسمعها فيها يقول الرسول :

٨- { استيقظ أيها النائم ، وقام من الأموات ، فيضيء لك المسيح } (أف ٥ : ١٤) .

٩- أشكر الله أني استيقظت . وكان النوم شيئاً عارضاً في حياتي . ولم تتركني النعمة الحافظة . لذلك مهما حاربني العدو بشتى الحروب الروحية ، { فلا أخاف من ربوات الجموع المحيطين بي ، القائمين على } . الله أقوى منهم جميعاً . يكفيني أن أصرخ إلي الله ، كما صرخت من قبل مراراً ، { فاستجاب لي من جبل قدسه }

١٠- وهكذا يستمر المزمور بالنسبة إلي الإنسان العادي سواء من جهة ضيقاته وأعدائه ، أو من جهة خطاياه

١١- ويمكن أن هذا المزمور يقال على لسان الكنيسة باعتبارها جماعة المؤمنين وجسد المسيح .
وهكذا يتسع التأمل في المزمور ، ولا يقف عند اتجاه معين . والقديس أوغسطينوس بعد أن ركز على السيد المسيح في بادئ تفسيره ، عاد وطبقه على الكنيسة ، ثم على الفرد العادي ...

داود هنا كرمز للمسيح

١- داود خانه أبشالوم . والسيد المسيح خانه يهوذا والشعب الذي هتف أصلبه أصلبه ..

٢- داود صرخ { قائلاً كثيرون قاموا على } . والسيد المسيح كذلك قام عليه كثيرون .

٣- وداود لم يكن ضد أبشالوم الذي خانه ، بل قال لقادة جيشه : { ترفقوا بالفتى أبشالوم } (٢صم ١٨ : ٥) ولما مات أبشالوم حزن عليه داود ، وبكى وهو يقول : { يا ابني أبشالوم ، يا ليتني مت عوضاً عنك يا أبشالوم ابني يا ابني } (٢ صم ١٨ : ٣٣)
وكلمة أبشالوم معناها سلام أبيه ـ مكونة من مقطعين أب ، شالوم . ذلك لأن أبشالوم وإن كان ضد أبيه ، إلا أن أباه لم يكم ضده ، بل كان في سلام معه ، على الرغم من ثورة هذا الابن عليه .
والسيد المسيح مات عوضاً عن الناس فعلاً ، وطلب المغفرة لصالبيه قائلاً { يا أبتاه أغفر لهم لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون } (لو ٢٣ : ٣٤) . وهكذا على الرغم من أن الناس كانوا ضد المسيح إلا أنه كان يحمل في قلبه سلاماً لهم . وقد أنذر يهوذا مرات عديدة ، وأراه بغتة عمله ..

٤- بدا داود في أول هذه الثورة عليه ضعيفاً ، يعجب من كثرة الذين يحزنونه . ولكنه في أخر الأمر انتصر ، وخلصه الله من جميع أعدائه . بل بعض أعدائه رجعوا إليه يقدمون الولاء . وهكذا كان المسيح يبدوا في نظر الناس ضعيفاً على الصليب ، يهزأون به قائلين : { خلص آخرين . وأما نفسه فما يقدر أن يخلصها } (مر ١٥ : ٣١) . ولكنه انتصر أخيراً ، بالقيامة . وآمن به كثيراً ممن اشتركوا في صلبه .. وخلص العالم كله ..

نتابع تأملاتنا في هذا المزمور يقول داود :

فلا أخاف

{ فلا أخاف من ربوات الجموع المحيطين بي ، القائمين على }

أولاد الله لا يخافون مطلقاً ، مهما أحاط بهم العدو . شعورهم بوجود الله معهم يطرح عنهم كل خوف ..

والله نفسه يقول لأولده { لا تخافوا } ،، لقد قال لأبينا إبراهيم : { لا تخف يا ابرام ، أنا ترس لك } (تك ١٥ : ١) . وقال ليشوع بن نون : { تشدد وتشجع . لا ترهب ولا ترتعب ، لأن الرب معك حيثما تذهب . لا يقف إنسان في وجهك كل أيام حياتك } (يش ١ : ٩ ، ٥) . وقال لبولس الرسول : { لا تخف بل تكلم ولا تسكت . لأني أنا معك ، ولا يقع بك أحد ليؤزك } (أع ١٨ : ٩ ، ١٠) .. وما اكثر ما قاله الله لأولاده : { لا تخافوا } أنه يقول لتلاميذه { لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد } (مت ١٠ : ٢٨) ويطمئنهم قائلاً : { أما انتم فجميع شعور رؤوسكم محصاه } ..

إنما يخاف الذين لا يشعرون بوجود الله في حياتهم ، أو الذين يشعرون انهم انفصلوا عن الله بخطاياهم ، فانفصلوا بالتالي عن المعونة والقوة الحافظة .

أما داود فكان يدرك تماماً مقدار الصلة بينه وبين الله ، لذلك لم يخف بل في وسط الضيقة ، وقيام جيوش ابشالوم عليه ، يضطجع داود وينام مطمئناً ، لأنه لا يخاف . ينام وهو واثق أن الله ساهر على سلامته . وتغني له الملائكة قائلة : { لا ينعس حافظك .. لا ينعس ولا ينام .. الرب يحفظك من كل سوء الرب يحفظ نفسك . الرب يحفظ دخولك وخروجك } (مز ١٢١) . لذلك فإن داود ينام وهو غير خائف ، تاركاً لله الساهر أن يحفظ سلامته ، بل أنه يقول :

{ أن سرت في وادي ظل الموت لا أخاف شراً لأنك أنت معي } (مز ٢٣)

وهكذا لم يخف دانيال حينما القوة في جب الأسود ، ولم يخف الثلاث فتية حينما ألقوهم في النار ، ولم يخف الشهداء وهم يقادون إلي الموت ، أو وهم يحتملون كل صنوف التعذيب .. ولم يخف داود من حركة أبشالوم ضده . بل هو يقول : { الر بنوري وخلاصي ممن أخاف ؟! الرب عاضد حياتي ممن أرتعب ؟! } (مز ٢٧ : ١) وتسأله : لماذا أيها النبي العظيم ؟ فيقول لك بالخبرة .. بالخبرة ماذا ؟ يقول بالخبرة { عند اقتراب الأشرار مني ليأكلوا لحمي ، مضايقي وأعدائي عثروا وسقطوا } ولذلك : { إن نزل علي جيش ، فلن يخاف قلبي ، وإن قام على قتال ، ففي ذلك أنا مطمئن } (مز ٢٧ : ٢ ، ٣)

{ هم عثروا وسقطوا ، ونحن قمنا واستقمنا } (مز ٢٠ : ٨)

أنها خبرة الحياة بالنسبة إلي داود . خبرته في عمل الله معه ، وفي عمل الله من أجله . إنها خبرته في صلواته المستجابة ، وفي مراحم الله التي لا تتخلى عنه مطلقاً . ليعمل أعداؤه ما يشاءون ، ولتلتف حوله ربوات الجموع المحيطين به القائمين عليه . يكفي لإبادتهم أن يقول :

قم يا رب خلصني يا إلهي

لم يكن داود خائفاً ، لكنه كان مقدراً خطورة الموقف تماماً . لذلك { قال لجميع عبيده الذين معه في أورشليم : قوموا بنا نهرب ، لأنه ليست لنا نجاه من وجه أبشالوم . أسرعوا لئلا يبادر فيدركنا .. } (٢ صم ١٥ : ١٤) . قال ذلك لأن الخطر كان محدقاً به وبهم { وكان الشعب لا يزال يتزايد مع أبشالوم } (٢ صم ١٥ : ١٢)

ولكن الخطورة كانت فكراً في عقله ، ولم تكن خوفاً في قلبه

لقد قدر خطورة الموقف ، ولكنه لم ينزعج لها ، وإنما رأى علاج الأمر بالالتجاء إلي الله ، فهو القادر أن ينجي لذلك قال : { قم يا ربي خلصني يا إلهي } ..
لم يترك الأخطار تنفرد به ، بل وضع الله بينه وبينها . ولم يواجه تلك المتاعب بنفسه ، وإنما ألقاها على الله . هو الذي يواجهها ويخلصه منها .

جميل أن يشعر الإنسان ، أنه ليس هو الذي يخلص نفسه ، إنما الله هو الذي يخلصه .

وهذا المعنى واضح باستمرار في مزامير داود حيث يقول مثلاً : { خلصني يا رب فإن البار قد فنى ، وقلت الأمانة من البشر } (مز ١١ : ١١) { اللهم باسمك خلصني ، وبقوتك أحكم لي } (مز ٥٤ : ١) { الآن عرفت أن الرب قد خلص مسيحه } (مز ٢٠ : ٦) { احفظني يا الله لأني عليك توكلت } (مز ١٦ : ١) { أنت إله خلاصي . إياك انتظرت اليوم كله } (مز ٢٥ : ٥) { الرب نوري وخلاصي ممن أخاف ؟ ! } (مز ٢٧ : ١ ويعوزنا الوقت إن أتينا بكل الأمثلة .

وكما يقول هنا : { قم يا رب خلصني { يقول أيضاً في أخر المزمور : } للرب الخلاص { (مز ٣ : ٨)

لقد إختبر داود أن الخلاص هو عمل الرب ، وليس هو إعتماد على ذراع البشر . جرب هذا الأمر في قتاله مع جليات ، حيث قال له : { اليوم الرب يحسبك في يدي } (١صم ١٧ : ٤٦) . وكما قال في تلك المناسبة : { الحرب للرب . وهو يدفعكم ليدنا } (١صم ١٧ : ٤٧) ، فإنه يقول هنا أن الخلاص للرب .
حقاً أن الخلاص للرب . { وليس للرب مانع عن أن يخلص بالكثير أو بالقليل } (١صم ١٤ : ٦) .

وهنا نجد داود يقول في المزمور : قم يا رب .

وتتردد هذه العبارة في مزاميره وفي الكتاب المقدس . ونقتبس منها في القداس الإلهي : { قم يا رب وليتبدد جميع أعدائك . وليهرب من قدام وجهك كل مبغضي أسمك القدوس } وهي عبارة مأخوذة من (عد ١٠ : ٣٥) ويجيب الرب قائلاً : { الآن أقوم - يقول الرب - أصنع الخلاص علانية } (مز ١١) . ويغني داود قائلاً : { يقوم الله يتبدد أعداؤه . ويهرب مبغضوه من أمام وجهه . كما يذري الدخان تذريهم } (مز ٦٨ : ١)
ليس هذا الأمر جديداً عليك يا رب . فمراحمك واسعة كل يوم . وخلاصك نراه في كل لحظة .

لأنك ضربت كل من يعاندني

{ لأنك ضربت كل من يعادينني باطلاً (أي بلا سبب) أسنان الخطاه سحقتها }
ما أكثر الذين كانوا يعادون داود باطلاً ، بلا سبب ، حتى أنه قال مرة :

{ أكثر من شعر رأسي ، الذين يعاندونني بلا سبب } (مز ٦٩ : ٤)

إنه لم يقترف ذنباً حتى عاداه شاول الملك . بل كان سبب عداوة الملك لداود أن داود كان يفلح { ينجح } أكثر من الجميع . (١صم ١٨ : ٢٩ ، ٣٠) .
وأبشالوم عاداه أيضاً بلا سبب ، إذ لم يسء إليه داود في شيء ، بل أن شهوة أبشالوم في العظمة والحكم هي التي أدخلته في حرب مع أبيه ..
وشمعي بن جيرا ، ماذا فعله داود ضده ، وأخيتوفل أيضاً .. لا شيء إلا أن الخيانة الكامنة في قلب كل هؤلاء ..
وكذلك يهوذا بالنسبة إلي المسيح : أختاره الرب ضمن تلاميذه ، وأعطاه الصندوق ، وأرسله للخدمة ، ومنحه

القدرة على عمل المعجزات . وحتى وقت الآكل كان يجلس في القرب منه ، يغمس لقمته في نفس صفحته (مت ٢٦ : ٢٣) ولكن الخيانة الكامنة في قلب يهوذا هي التي دفعته إلي الخطية ..

هؤلاء الذين يعادون بلا سبب ، هم ظالمون . والرب يأخذ حق المظلومين منهم .

أنه هو الذي قال : { لي النقمة ، أنا أجازي ، يقول الرب } (رو ١٢ : ١٩) . لذلك ضرب الله فرعون ضربات كثيرة ، لأنه كان يسخر الشعب ويضطهدهم بلا سبب وضرب الله أهل سادوم بالعمى لما حاولوا الاعتداء على ضيفي لوط البار (تك ١٩ : ١١) . كذلك ضرب الرب مضطهدي الكنيسة ، البعض بالجنون ، والبعض بالموت ، لأنهم اضطهدوا الكنيسة بلا سبب .. وضرب الرب أريوس فمات لأنه أيضاً عادى الكنيسة بلا سبب ..
وهكذا داود يتذكر كل ما مر عليه من أحداث وكيف ضرب الرب شاول ، وابنير وضرب أمامه عماليق لما غزا صقلغ وأحرقها بالنار (١صم ٣٠) .. وفي ذلك غنى داود للرب قائلاً { لأنك ضربت كل من يعادينني باطلاً . أسنان الخطاة سحقتها } (مز ٣)

أسنان الخطاة سحقتها

الخطاة مثل وحوش مفترسة ، تريد أن تلتهم أولاد الله لذلك شبههم الرب مرة بذئاب خاطفة (مت ٧ : ١٥) . وقال عنهم القديس بولس الرسول : { ذئاب خاطفة لا تشفق على الرعية } (أع ٢٠ : ٢٩) وضرب مثالاً لذلك فقال { حاربت وحوشاً في أفسس } (١كو ١٥ : ٣٢) . وقال القديس بطرس الرسول : { أصحوا واسهروا ، لأن إبليس خصمكم مثل أسد زائر ، يجول ملتمساً من يبتلعه هو } (١ بط ٥ : ٨) . لهذا كان لابد من معونة إلهية تحمى من أسنان هذه الوحوش .

قال داود في مزمور سابق : { مبارك الرب الذي لم يسلمنا لأسنانهم } (مز ١٢٤ : ٦) . وهنا يقول الرب { أسنان الخطاة سحقتها } (مز ٣)

إن تخلصينا من أسنان الخطاه ، فلا نكون فريسة لها ، هو خلاص مبدئي ، مجرد مرحلة من النجاه ، ولا تزال الأسنان الفتاكة باقية . أما هنا فيحدثنا النبي المختبر عن عمل من أعمال الله أكثر فاعلية وخلاصاً وهو { أسنان الخطاة سحقتها } أي لم ثبق لهم قوة على الأفتراس بعد . إنه خلاص نهائي بتحطيم العدو تماماً .. مبارك أسم الرب حقاً ..

داود يقول هذا بروح الإيمان ، في نفس الوقت الذي يقول فيه { قم يا رب ، خلصني يا إلهي } .. إنه يطلب الخلاص ويراه بعين الإيمان .

الخلاص هو قصة علاقته مع الله طوال حياته . وكأنه يردد مع زكريا الكاهن قوله { خلاص من أعدائنا ومن جميع مبغضينا } (لو ٧١) . خلاص يصنعه الرب وليس نحن . خلاص من جليات الغريب الجنس ، وخلاص من شاول الحاقد ، من سهامه ومن مؤامراته ، وخلاص من أخيتوفل الخائن ، ومن ابشالوم الابن العاق ..

قم يا رب ، أصنع الخلاص علانية ، لأنه للرب الخلاص .

هذا موضوع خاص بالرب ، نعتمد عليه فيه اعتمادا كلياً ، متذكرين كل إحساناته السابقة إلينا .

يقول هذا أيضاً كل إنسان في ضيقة ، أو في خطية منتصر عليه .

أنا يا رب بذلت كل جهدي ، وما زلت أسقط ، من ربوات الشهوات والعثرات المحيطة بي القائمة على ، التي كادت تصبح عادات ثابتة ، أو تدخل في طبيعتي فتفسدها . ولكني أتكل عليك أنت ، لأنك تستطيع أن تسحق أسنان الشياطين الخطاة الذين يعادونني باطلاً ، تخلصني منهم ، فأصيح مع داود : { للرب الخلاص }

وتقول الكنيسة هذا أيضاً في كل متاعبها .

قم يا رب خلصني يا إلهي . لأن ضربت كل من يعادينني باطلاً . للرب الخلاص وعلى شعبك بركتك ..

على شعبك بركتك :

أنت تخلص وتبارك . تخلصنا من السلبيات والضيقات . وتباركنا بكل بركة روحية من فوق .. هذا هو العنصر الإيجابي في الخلاص .
الله في الخلاص الذي قدمه ، لم يخلصنا فقط من الخطية الجدية ومن الخطايا الفعلية فحسب ، إنما منحنا أيضاً بركات العهد الجديد : البنوة ، والميلاد الثاني ، ومسحة الروح القدس وكل الأسرار المقدسة . لكي نهتف له مع داود قائلين : { وعلى شعبك بركتك } ..

وبركة الله على شعبه ، وليس على الغرباء

هؤلاء الذين يدخلون في خلاص الرب ، ويقولون للرب الخلاص .. الذين يصيرون أغصان في الكرمة الحقيقية ، تسري فيهم عصارتها ، وتظهر فيهم ثمارها ، ويكونون أعضاء حية فيها ..هؤلاء هم الذين يتمتعون ببركة الرب في حياتهم وفي خدمتهم وفي كل أعمالهم . ويقولون له : { للرب الخلاص وعلى شعبك بركتك } .

هذه البركة أرادها الله للعالم منذ البدء ..

فبارك الله أدم وحواء (تك ١ : ٢٨) أعطاهما بركة الثمر والكثرة والسلطة .. وبارك الله نوحاً ونبيه (تك ٩ : ١) حينما جدد وجه الأرض مرة أخرى ، وأعطاهم نفس بركة أدم وحواء . وبارك الله أبانا إبراهيم ، وعظم أسمه وجعله بركة بحيث يتبارك مباركوه ، وفيه تتبارك جميع قبائل الأرض (تك ١٢ : ٢ ، ٣) . وهذه البركات تتلى على الشعب كله من فوق جبل جرزيم (تث ٢٧ : ١٢)

وصارت البركة هي أقصى ما يطلبه إنسان ، وهي تحمل داخلها كل شيء

وقد قال سليمان الحكيم في ذلك : { بركة الرب هي تغني ..} (أم ١٠ : ٢٢) . أما الذي تخلو حياته من البركة ، تصبح حياته فارغة تماماً ، ويفشل في كل شيء .
لذلك كانت نهاية هذا المزمور بالبركة ، تدل على أن داود وصل إلي عمق ما يتمناه ..

هكذا مزامير داود

ما أعجب داود النبي في مزاميره ! وما أعجب مزاميره : كيف تبدأ وكيف تنتهي !

يبدأ هذا المزمور بالشكوى والعتاب ، الشكوى من شدة الذين يحزنونه ، القائمين ليه ، الذين يدفعونه إلي اليأس بقولهم : { ليس له خلاص بإله .. } وينتهي بالبركة وخلاص الرب ، وبأن الرب ناصره ومخلصه من كل أعدائه .

وتكون نقطة التحول في المزمور ، من الحزن إلي الخلاص ، هي قول المرنم : { بصوتي إلي الرب صرخت فاستجاب لي من جبل قدسه } .

يتدخل الرب في المشكلة ، تنتهي المشكلة ، ويتغير مجرى الأمور ، ولا يخاف المصلي من ربوات الجموع المحيطين به القائمين عليه .. حقاً إن من الصعب ما يتعب الإنسان ، أنه يقف وحده في مشاكله ، دون أن يدعوا الله للدخول فيها ، ولإنقاذه منها ..

مزامير داود تعطينا عزاء عميقاً في كل متاعبنا ، روحية كانت أو إجتماعية ..

خذوا مثالاً لذلك المزمور السادس { يا رب لا تبكتني بغضبك } .. يبدأ بأنين داود ، وبقوله : { إن عظامي قد اضطربت ، ونفسي قد انزعجت جداً } ثم تأتي نقطة التحول إذ يقول في نهاية المزمور { ابعدوا عني يا جميع فاعلي الآثم . لأن الرب قد سمع صوت بكائي . الرب سمع صوت تضرعي . الرب لصلاتي قبل }

ليتنا نرتل المزامير بنفس الروح ، ونقول للرب مع داود : { حولت نوحي إلي فرح لي .. أعظمك يا رب لأنك احتضنتني } (مز ٣٠ : ١١ ، ١)